النادي الشبابي

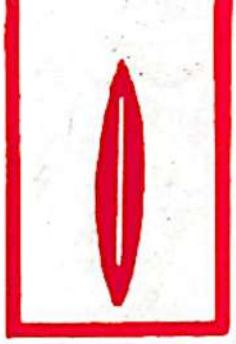

الدكتور يوسف القرضاوي

نساء مؤمنات

- خديجة بنت خويلد ..
- فاطمة الزهراء ..
- اسماء .. ذات النطاقين ..
- ام سليم .. الرميصاء ..
- ام عمارة .. نسيبة بنت كعب .

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
تليفون : ٣٩١٧٤٧٠

الدكتور يوسف القرضاوى

نساء مؤمنات

- خديجة بنت خويلد.
- فاطمة الزهراء.
- أسماء ذات النطاقين.
- أُم سليم .. الرميصاء.
- أُم عمارة .. نسيبة بنت كعب.

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
تليفون: ٣٩١٧٤٧٠

النادي الشبابي

الطبعة الثالثة

١٤١٠ هـ - ١٩٩٠م

جميع الحقوق محفوظة

النادي الشبابي

تم صف الأحرف
بمكتب اليُسر لخدمات الطباعة
القاهرة - ت : ٢٤٤٩٧٠٥

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وأصحابه ومن اتبع هداه .

أما بعد .. فإن قضية الإيمان هي أعظم قضايا الوجود ، لأنها قضية المبدأ والمصير ، والغاية والرسالة . ولا سبيل إلى تماسك المجتمع ، أو سعادة الفرد في الأولى والآخرة بغير الإيمان . فالإيمان ضرورة دينية ، وضرورة دنيوية ..ضرورة فردية ، وضرورة اجتماعية . وهو في الواقع جوهر الحياة وروحها وجمالها .

ولهذا كان على كل ذي فكر ، وذي قلم أو لسان ، وكل من له قدرة على التأثير والتوجيه . أن يعمل على تثبيت معاني الإيمان ، وحقائق الإيمان ، وأخلاق الإيمان ، في أنفس الناس وحياتهم . حتى يسعدوا بالحياة ، وتسعد بهم الحياة ، ويتزودوا بخير الزاد لما بعد هذه الحياة .

وقد شغلتني قضية الإيمان باعتبارها « قضية الإنسان المصيرية » الأولى . فكتبت فيها وحولها ، ولا زلت أكتب ولن أزال .

كتبت عن « الإيمان والحياة » ، وعن قضايا الإيمان الكبرى، مثل قضية « وجود اللّه » جل جلاله ، وقضية « التوحيد » أساس الإيمان ولبه في الإسلام ، وقضية « الإيمان بالقدر » وغيرها .

كما رأيت أن من وسائل تثبيت الإيمان عرض « نماذج مؤمنة » يرى الناس فيها معانى الإيمان وقيمه وفضائله مجسمة في بشر يمشون على الأرض ، يمكن أن تتخذ من حياتهم أسوة حسنة .

وهذا سر عناية سَلَفنا رضى اللّه عنهم بكتب الطبقات والتراجم للعلماء والزهّاد والصالحين . ليكون من سيرهم منارات إرشاد ، ومصابيح هداية .

وقد بدأت بعرض هذه النماذج الرائعة لعدد قليل من « النساء المؤمنات » وعسى أن يمدنا اللّه بالعون والتوفيق

لنضيف إليها غيرها ، من نساء الأمة الصالحات القانتات الفاضلات . ومن رجال الأمة كذلك .

ولعل من الخير الذي قدّره اللّه أن بدأنا بنماذج النساء المؤمنات قبل الرجال المؤمنين .

ذلك لأن الميدان النسائي قد غزاه شياطين الإنس فأفسدوا على المرأة المسلمة تفكيرها ووجدانها وسلوكها . فأصبحت في حاجة ماسة إلى أن ترد رشدها ، وتعود إلى أصالتها .. وتعتز بشخصيتها الإسلامية ، وترفض التقليد الأعمى ، والتبعية الذليلة للغرب أو للشرق ، راضية باللّه وحده رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً .

هذا مع أنى لاحظت من خلال تجاربي في الدعوة والتدريس والإفتاء أن المرأة أشد اهتماماً بالدين وتأثراً به من الرجل . لأن قلبها في الغالب أشد حساسية وشفافية من قلب الرجل .

لهذا كان على الدعاة والمصلحين أن يوجهوا اهتمامهم إلى هذا الميدان الخطير - ميدان المرأة - مستعينين بكل الوسائل والأساليب الكفيلة بمواجهة وسائل الهدّامين وأساليبهم .

فإلى كل امرأة مسلمة ، فتاة أو زوجة أو أماً أو عضواً في المجتمع ، أقدِّم هذه النماذج المؤمنة ، لعلها بها تقتدى فتهتدي .

وباللّه التوفيق ، ومنه العون ، وعليه التوكل والاعتماد .

٥ ربيع الأول سنة ١٣٩٩ هـ

٢ فبـــرايـــر سنة ١٩٧٩ م

د. يوسف القرضاوي

* * *

خديجة بنت خويلد

عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ اذا ذبح الشاة يقـول : أرسلوا الى أصدقاء خديجة .. قالت : فذكرت له يوما فقال : أنى لأحب حبيبها ..

• خديجة في الجاهلية :

هى خديجة بنت خويلد بن عبد العزى بن أسد القرشية الأسدية الصدِّيقة الكبرى ، والأم الأولى للمؤمنين ، والزوج الأولى للرسول الكريم ، وأم أولاده جميعاً إلا إبراهيم .

كانت في الجاهلية تحت أبى هالة بن زرارة التميمى ، وقد مات عنها ، بعد أن ولدت له هنداً الذى آمن بالرسول وصحبه وشهد معه بدراً ، كما ولدت له هالة بن أبى هالة وكان له صحبة أيضاً .

وبعد موت أبى هالة تزوجها عتيق بن عابد المخزومي

فولدت له بنتاً اسمها هند ، لها اسلام وصحبة ، ثم خلف عليها بعد عتيق سيد الأزواج محمد بن عبد الله .

وكانت خديجة تُدعى في الجاهلية : الطاهرة لشدة عفافها وصيانتها ، ويصفونها بسيدة نساء قريش .

* * *

• خديجة التاجرة :

كانت خديجة امرأة تاجرة ذات شرف ومال تستأجر الرجال في مالها ، وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم ، وكانت قريش قوماً تجاراً .

وفي جلسة بين أبي طالب ومحمد ابن أخيه قال له : يابن أخي ، أنا رجل لا مال لي وقد أشتد الزمان علينا ، وألحت علينا سنون منكرة ، وليس لنا مادة ولا تجارة ، وهذه عير قومك ، قد حضر خروجها إلى الشام ، وخديجة تبعث رجالاً من قومك يتجرون في مالها ويصيبون منافع ، فلو جئتَها لفضّلتكَ على غيرك لما يبلغها عنك من طهارتك .

فقال محمد عليه السلام : لعلها ترسل إليّ فى ذلك .

فقال أبو طالب : إنى أخاف أن تولى غيرك .

وبلغ هذا الحوار بين محمد وعمه إلى خديجة ، فما كان منها إلا أن أرسلت إليه لما عرفت عنه من الصدق والأمانة ، وحسن السمعة ، وعرضت عليه أن يخرج في مال لها إلى الشام تاجراً ، وتعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره من التجار ، مع غلام لها يقال له « ميسرة » فقبل رسول الله منها ، وخرج في مالها ذلك ، ومعه غلامها ميسرة إلى الشام .

* * *

• شريكة التجارة تصبح شريكة الحياة :

عاد محمد من الشام بربح وفير لم تحصل عليه خديجة من قبل ، وعاد إليها غلامها بحديث أوفر من الربح عن هذا الرفيق الكريم وما رأى ولمس فيه من سمو الأخلاق وعجيب الآيات .

وهفا قلب خديجة إلي محمد أن يشركها في الحياة كما شركها في التجارة فإنه رجل نادر المثال حقاً !!

شاب ، وليس فيه عبث الشباب ، تاجر ، وليس فيه جشع التجار ، فقير ، وليس فيه ضعة الفقراء ، قرشى ، وليس فيه زهو قريش .

إن الرجال اعتادوا أن يخطبوا النساء ، فكيف تخطب المرأة الرجل ؟

هذه هى المشكلة ، ولكن خديجة تحلها عن طريق صديقتها نفيسة أخت يعلى بن منبه .

أرسلتها خديجة دسيساً إلى محمد ، فقالت له : ما يمنعك أن تتزوج ؟

قال : ما في يدى شىء .

قالت : فإن كُفيتَ ودُعيتَ إلى المال والجمال والكفاءة ؟

قال : ومن ؟ قالت : خديجة ، قال : وكيف لى بذلك ؟ قالت : علىّ ذلك .

فسارع الرسول إلى إعلان قبوله ، وذهبت نفيسة إلي خديجة فبشرتها بنتيجة هذا الحديث ، ولم تلبث خديجة أن حددت الموعد الذى يلتقى فيه محمد وأعمامه بأهل خديجة ،

فذهب الرسول ومعه عمّاه أبو طالب وحمزة وخطبوا خديجة من عمها عمرو بن أسد ، وكان صداقها عشرين بكرة ، وكانت سنها أربعين سنة وكان هو في الخامسة والعشرين على أشهر الأقوال .

* * *

• زواج مثالى :

لقد كان من الميسور لمحمد بن عبد اللّه أن يتزوج فتاة من أبكار قريش ، بدل هذه الثيب التى تزوجت مرتين ، وبلغت الأربعين أو جاوزتها ، وأوشك وجهها أن يتجعد ، وشعرها أن يشيب .

لو كان من عشّاق الجسد وطلاّب الشهوة لكان له في الأبكار الصغار متسع ، وهو الفحل لا يُقدع أنفه ، والقرشى الهاشمي لا تُرد خطبته ، وله من قوة شخصيته ، وحسن سمعته ووسامة طلعته ، وشهرة أُسرته ، ما يزيل العقبات ، ويمهد السبيل .

ولكنه كان ينشد العقل الرشيد ، والقلب الكبير ، فوجدهما في خديجة .

وكان أمام خديجة - وهي يومئذ أوسط نساء قريش نسباً ، وأعظمهن شرفاً ، وأكثرهن مالاً - من عظماء قريش وأثريائها مَنْ يتمنى زواجها ، ومَنْ أرسل إليها يخطبها ، ولكنها رغبت عنهم جميعا ، شعرت بأنهم يخطبون مالها لا شخصها ، يخطبون خديجة الغنية لا خديجة الإنسان .

ردت خديجة يد أشراف قريش ، ولم تجد حرجاً أن تعرض نفسها - بواسطة أو بغير واسطة - على الشاب الفقير الذي يعمل في تجارتِها ، إنها وجدت في محمد ضالتها ، فاختارته بقلبها الملهم ، وإنما اختارت لنفسها - في الحقيقة - الخلود ، ودخلت التاريخ من أوسع الأبواب .

ومن أولى بمحمد من خديجة ؟ وأولى بخديجة من محمد؟ إن المرأة التى يُلقِّبونها بالطاهرة أولى بالرجل الذي يُلقِّبونه بالأمين ﴿ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ ﴾ (١) .

وكان زواجاً سعيداً موفقاً لم تغم سماؤه يوماً من الأيام ،

---

(١) النور : ٢٦

ولم يعكر صفوه افتتان المرأة الغنية بمالها ، ولا اعتداد الشاب الفتى بشبابه ، بل كان شبابه كله لها ، وكان مالها كله له ، يبذل منه ما يرى في صلة الرحم ، ووجوه البر ، وصنائع المعروف .

أصابت الناس سنة جدب فجاءت حليمة السعدية مرضعة الرسول إليه فأكرم وفادتها ، وعادت من عنده ومعها من مال خديجة بعير يحمل الماء ، وأربعون رأساً من الغنم .

وكانت خديجة أول امرأة تزوجها رسول اللّه ولم يتزوج عليها غيرها حتى ماتت رضى اللّه عنها .

وقد ولدت له أولاده كلهم ، إلا إبراهيم : ولدت له من الذكور : القاسم وهو أكبر بنيه ، وبه كان يُكَنَّى بعد البعثة ، وعبد اللّه ويُلَقب بالطيب والطاهر ، ومن الإناث : رقية ثم زينب ثم أم كلثوم ثم فاطمة أصغر بناته .

فأما القاسم وعبد اللّه فماتا في الجاهلية ، وأما البنات فقد أدركن الإسلام وهاجرن معه عليه السلام ، وقد كان يتوقع من خديجة أن يهلع فؤادها لموت أبنائها من رجل تحبه في

عصر كانت تُوأد فيه البنات ولكنها كانت دائماً مثال العزم الراسخ والإيمان الصَبور .

* * *

• خديجة المؤمنة :

ثلاث نسوة بارزات في حياة الرسل الثلاثة أصحاب الديانات الأخيرة الكبرى : آسية امرأة فرعون في حياة موسى ، ومريم ابنة عمران في حياة عيسى ، وخديجة في حياة محمد عليه السلام ، كل واحدة منهن كفلت نبياً مرسلاً قبل بعثته ، وأحسنت الصُحبة في كفالته ، وصدَّقت به بعد رسالته ، لهذا جمع الرسول بين هؤلاء الكوامل في عقد واحد فقال : « كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا مريم ابنة عمران ، وآسية امرأة فرعون ، وخديجة بنت خويلد » .

وإذا كان بعض الحكماء يقول : « إن وراء الرجل العظيم امرأة تشد أزره . أماً كانت أو زوجاً » فقد كانت خديجة المرأة التي وراء محمد عليه الصلاة والسلام .

أعانته في الجاهلية على حياته الطاهرة النقية البعيدة عن الأوثان والخمر والميسر واللَّغو والشهوات ، وكانت له ظهيراً في حياة التجرد والتأمل والبُعد عن صخب الناس وضوضاء الحياة .

كانت تُهيىء له الزاد كل عام ليقضى شهر رمضان في غار حراء ، ولو كان الأمر لعاطفتها المجردة ما رضيت -كامرأة - أن يغيب عنها ليلة واحدة ، فكيف باللَّيالى ذوات العدد ؟

ولكنها تحس أن زوجها رجل غير الرجال ، وأن له شأناً أى شأن ، فلتكن عونه على مُثله الرفيعة ، وقيمه العليا ، وقد كانت تصحبه أو تزوره أحياناً في هذا الغار وتبقى معه أياماً وليالى تؤنسه وترعاه ، ومن طواعيتها له قبل البعثة ومسارعتها في هواه أنها رأت ميله إلى زيد بن حارثة - بعد أن صار في ملكها فوهبته له ، فكانت هى السبب فيما امتاز به زيد من السبق إلى الإسلام .

هذه خديجة في الجاهلية ، وأما بعد الرسالة ، فاستمع

إلى عائشة تروى موقفها من الرسول حينما تلقى أول شحنة من وحى السماء في غار حراء ، وغطّه جبريل حتى بلغ منه الجهد ، فعاد إلى خديجة ترجف بوادره يقول : زملونى ، زملونى ، لقد خشيتُ على نفسى ...

ولم تكن خديجة ممن يطير لبها فزعاً ، ولم يكن هذا الطارىء العجيب الغريب ليذهلها عن سداد الرأى ، ومنطق الحكمة ، لقد عرفت بنور بصيرتها وسلامة نظرتها سنة اللّه في معاملة عباده فقالت لزوجها في ثقة ويقين : كلا واللّه لا يخزيك اللّه أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكَل ، وتكسب المعدوم ، وتصدق الحديث ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الدهر .

وفى رواية قالت له : أبشر واثبت يابن عم ، فوالذي نفس خديجة بيده انى لأرجو أن تكون نبى هذه الأُمة .

ولم تكتف بالقول ، بل صحبته إلى ابن عمها ورقة بن نوفل - وقد كان امرءاً تنصَّر في الجاهلية ، وعرف العبرانيـة ، وكتب بها من الإنجيل ما شاء اللّه أن يكتب -

فقالت له خديجة : أى ابن عم ، اسمع من ابن أخيك .فقال له ورقة : يابن أخى ما ترى ؟ فأخبره رسول اللّه خبر ما رأى .

فقال له ورقة : هذا الناموس الذى أنزله اللّه على موسى .

وهكذا كانت خديجة ملاك الرحمة ، والمرفأ الأمين ، والملاذ المكين لمحمد عليه السلام .

كانت أنسه إذا استوحش ، وكنزه اذا احتاج ، وأمله إذا استيأس ، وطمأنينته إذا اضطربت من حوله الحياة .

قال ابن إسحق : كانت خديجة أول من آمن باللّه ورسوله ، وصدّق بما جاء به ، فخفف اللّه بذلك عن نبيه ، فكان لا يسمع شيئاً يكرهه ، من الرد عليه ، والتكذيب له ، فيحزنه ذلك ، إلا فرّج اللّه عنه بها إذا رجع اليها ، تُثبّته وتخفّف عنه ، وتهوّن عليه أمر الناس .

شاطرته متاعب الدعوة ، وآلام الرسالة راضية مغتبطة ، دخل الشعب فدخلت معه ، وذاقت مرارة الحرمان وعضة

الجوع ، وهى ذات المال الوفير وربيبة الرفاهية والنعيم ، فلا عجب أن يحمل إليها أمين الوحى السلام من فوق سبع سموات !

روى البخارى عن أبي هريرة قال : « أتى جبريل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه طعام ، فإذا هى أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها .. ومنى ، وبشرها ببيت في الجنة من قصب [1] ، لا صخب فيه ولا نصب » .

قال السهيلى : إنما كان البيت بهذا الوصف ، لأنها لم ترفع صوتها على النبي ﷺ ولم تتعبه يوماً من الدهر ، ولم تصخب عليه مرة ولا آذته أبداً .

* * *

• وفاة .. ووفاء :

في السنة العاشرة من البعثة ، وقبل الهجرة بثلاث سنين شاء القدر الذى يبتلى الناس قدر دينهم أن يختطف من

---

(١) قال ابن هشام : القصب هنا : اللؤلؤ المجوف .

الرسول زوجه الحبيبة خديجة التى كانت له - كما قال ابن هشام - وزير صدق على الإسلام .

وقبلها بقليل مات ساعده الأيمن عمه أبو طالب ، تلك كانت ملاذه في الداخل ، وهذا كان عضده وناصره في الخارج ، فكان هذا المصاب بعد ذاك جديراً أن يترك في نفس النبي أثراً عميقاً جعله يسمى هذا العام عام الحزن .

ماتت خديجة ولكن ذكراها لم تمت في نفس رسول اللّه ، لقد ظل وفياً لها طوال حياته : يحن لذكراها ويهش لأهلها ، ويكرم صديقاتها ، حتى إن عائشة أحب أزواجه اليه بعدها لتغار منها في قبرها ، قالت : كان رسول اللّه لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة فيُحسن الثناء عليها ، فذكرها يوماً من الأيام فأخذتنى الغيرة فقلت : هل كانت إلا عجوزاً قد أبدلك اللّه خيراً منها ؟

فغضب حتى اهتز مقدم شعره من الغضب ، ثم قال : لا واللّه ما أبدلنى اللّه خيراً منها ، آمنت بى إذ كفر الناس ،

صدقتنى إذ كذّبنى الناس ، وواستنى بمالها إذ حرمنى
ناس، ورزقني اللّه منها الولد دون غيرها من النساء !!
الت عائشة : فقلت في نفسي : لا أذكرها بعدها بسيئة
بداً .

رحمها اللّه ، ورضِيَ عنها ، وجزاها عن نبيه ودعوته خير
ما يجزى الصدِّيقات ..

* * *

فاطمة الزهراء

عن المسور بن مخرمة قال : سمعت النبي ﷺ على المنبر يقول : « فاطمة بضعة منى ، يؤذينى ما آذاها ، ويريبني ما رابها » ...
(رواه الشيخان)

• اللّهم هؤلاء أهلى :

اسمها فاطمة ، ولقبها الزهراء ، اسم له في التاريخ رنين ، انتسبت إليه أسر فعُرِفوا بين الناس بالأشراف ، واقترنت به دول فسموا أنفسهم بالفاطميين .

أبوها محمد رسول اللّه وكفى ...

وأمها خديجة بنت خويلد وحسبك ..

وزوجها علىّ بن أبي طالب ، وحفيد عبد المطلب ، ونجيب هاشم ، وفتى قريش ، وفارس الإسلام ..

وابناها الحسن والحسين ريحانتا رسول اللّه ، وسيدا شباب أهل الجنة .

وهى وزوجها وابناها خاصة النبي ، وأقرب الناس إليه ، وأعزهم عليه .

روى مسلم أنه حين نزلت هذه الآية : ﴿ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ﴾ (١) .. دعا رسول الله علياً وفاطمة والحسن والحسين وقال : « اللّهم هؤلاء أهلى » ..

وأخرج الترمذى عن أم سلمة أن النبي ﷺ جعل على الحسن والحسين وعلىّ وفاطمة كساءً وقال : « اللّهم هؤلاء أهل بيتى وخاصتى ، أذهب عنهم الرجس ، وطهرهم تطهيراً »..

* * *

• ميراث وتربية :

الخطوط العريضة لمزاج الإنسان وتفكيره ترسمها يد القدر ، عن طريق العوامل الوراثية التى تنقل إليه من أبويه وأجداده ، ما قُدِّرَ له من خَلقه وخُلقه .

---

(١) آل عمران : ٦١

والخطوط المفصلة لخُلقه وسلوكه وشخصيته كلها تؤثر فيها إلى حد كبير ، البيئة التى يعيش فيها ، وبخاصة البيت الذي يضمه في صغره .. أى أمه وأبوه .

هذا ما قرَّرته علوم الحياة والنفس والأخلاق والاجتماع .

وهو نفس ما قرره الدين من قبل ، حين اعترف بأثر الوراثة ، فقال : « تخيروا لنطفكم .. » .

واعترف بأثر البيئة فحذَّر من المرأة الحسناء في المنبت السوء .

وقد تهيأ لفاطمة من المواريث الأُسرية أعزَّها وأغلاها ، ومن البيئة المنزلية ، أشرفها وأنقاها .

وما ظنك بفتاة ورثت عن آبائها وأُمهاتها ما شاء اللّه لها من مجادة قريش ، وأريحية هاشم ، وسؤدد عبد المطلب ، وطهارة عبد اللّه ، ومكارم محمد ، وفضائل خديجة بنت خويلد ، وآمنة بنت وهب ؟

وما ظنك بفتاة تُولد في بيت يعمره الحب ، ويظلّله الصفاء ، بين أب يُلّقب في قومه بالأمين ، وأم تُلّقب في

أترابها بالطاهرة . هذا سيد شباب قريش ، وتلك سيدة نساء قريش ؟!

وُلِدَت فاطمة قبيل البعثة بزمن اختلفت في تحديده الروايات : خمس سنوات أو أقل أو أكثر ؟ المهم أنها وُلِدَت في تلك المرحلة التى كان القَدَر يُعِدُّ فيها أباها لتلقى أعظم رسالة في الوجود : مرحلة التأمل العميق ، والتعبد الطويل، والخلوة في غار حراء كل عام ، وفي تمام الأربعين أوحى اللّه إليه ، وبعثه إلى الناس كافة ، وإلى قومه خاصة ، فشاء اللّه لفاطمة أن تنشأ في أحضان النبوة ، وتدرج في حجر الرسالة ، وكأنما كانت تكبر مع الدعوة ، وتنمو مع انتشارها .

شهدت أباها - واعية أو غير واعية - يدعو إلى دينه سراً ، ثم يُنذر عشيرته الأقربين ، ثم يصدع بأمر ربه معرضاً عن المشركين ، منادياً على جبل الصفا ، ثم يحمى الوطيس بينه وبين قومه فيُسفِّه أحلامهم ، ويهزأ بأصنامهم ، ويُضلِّل آباءهم ، فيعنفون عليه في الخصومة ، ويناصبونه العداء ، ثم يدخل الشِعب ، فتدخل معه ومع أُمها وأخواتها ، وتذوق

مرارة الجوع ، وتحس ألم المقاطعة والحرمان ، ويتجرع كئوس الأذى في نفسه وأصحابه ، بالقول السيىء تارة ، وبالفعل القبيح طوراً .

ترى الفتاة كل هذا ، وتحسه ، وتلمسه ، ويفعل ذلك في قلبها فعل التيار الكهربائي في الأسلاك ، وتسهم في درء الأذى عن أبيها ، حيناً بيديها ، وأحياناً بدموع عينيها !! وماذا تملك جويرية صغيرة لأب عطوف يُؤذَى أمام سمعها وبصرها ، إلا عَبرات تذرفها ؟ !

كان عليه السلام يُصلّى يوماً بالكعبة - وبعض سفهاء المشركين جالسون - فانبعث أشقاهم فأتى بسلا جَزور فألقاها عليه ، فلم يزل ساجداً حتى جاءت فاطمة فأزالت عنه الأذى.

وكان أم جميل امرأة أبى لهب تلقى الأقذار والنجاسات أمام بيته ، فيزيلها في هدوء ومعه فاطمة تحاول أن تعيد إلى المكان نظافته وطهارته .

ولقيه مرة سفيه من سفهاء قريش ، فرمى على رأسه تراباً ، فرجع إلى بيته والتراب على رأسه ، فقامت إليه فاطمة

فجعلت تغسل عنه التراب وهى تبكي - وأشق شىء على نفس الأب أن يرى دموع بنيه الصغار ، وأشق منها أن يرى دموع بناته الصغيرات ، وأشق من هذا وذاك أن تكون هذه الدموع من أجل الأب نفسه - فما أن رأى النبي الكريم دموع ابنته على خديها حتي ثبّت فؤادها ، وقال لها مبشراً : لا تبكى يا بنية ، فإن اللّه مانع أباكِ .

وظلت الرحى دائرة بين النبي والمشركين ، إيذاء من جانبهم ، وإصرار من جانبه ، حتى كانت الهجرة إلى المدينة ، حيث هاجر ومعه أبو بكر ، ثم بعث زيد بن حارثة وأبا رافع إلى مكة ليأتيان بأهله ، ففعلا ، وقدما عليه المدينة بزوجته سودة بنت زمعة ، وابنتيه فاطمة وأم كلثوم ، واستقر بهم المقام في الدار الجديدة للإسلام .

* * *

• علىّ يخطب فاطمة :

كان للنبي عليه السلام أربع بنات كلهن من خديجة ، أكبرهن زينب ، ثم رقية ، ثم أم كلثوم ، ثم فاطمة .

أما زينب فتزوجها ابن خالتها أبو العاص بن الربيع ، وأمه هالة بنت خويلد .

وأما رقية وأم كلثوم فقد تزوجتا من ابنى أبى لهب : عتبة وعُتيبة ، فلما نزلت سورة ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ ضغط أبو لهب وامرأته على ابنيهما أن يُطلِّقا ابنتى محمد فطلَّقاهما ، وتزوجهما ذو النورين عثمان بن عفَّان واحدة بعد الأُخرى .

وأما فاطمة فقد كانت أصغرهن ، ولم تبلغ مبلغ النساء إلا في المدينة ، وهناك أراد علىّ بن أبي طالب أن يتقدم إلى رسول اللّه لخطبتها ، فذهب إليه يُقَدِّم رجلاً ، ويُؤخِّر أُخرى ، وتدفعه الرغبة والحب ، ويمنعه الحياء والفقر .

وها هو يحدثنا فيقول : أردتُ أن أخطب إلى رسول اللّه ابنته - واللّه ما لى شىء - ثم ذكرتُ صلته وعائدته ، فخطبتها اليه ، فقال : وهل عندكَ شىء ؟ فقلت : لا ، قال : فأين درعك الحطمية التى أعطيتك

يوم كذا وكذا ؟ قلتُ : هـى عندى ، قال : فأعطها إياهـا » ، فكانت تلك الدرع مهر بنت رسول اللّه .

وبهذا ضرب الرسول مثلاً للآباء في تزويج بناتهم أن يكونوا مُيَسِّرين لا مُعَسِّرين .

وضرب علىٌّ مثلاً للشباب المؤمن حين يقدم على الزواج - وإن لم يكن معه فضة ولا ذهب - معتمداً على معونة ربه ، وعزيمة قلبه ، وحقٌّ على اللّه أن يعين كل شاب يريد العَفاف .

وضربت فاطمة مثلاً للفتاة المؤمنة التى يهمها من الرجل إيمانه وخُلقه ، لا درهمه ودينارة ، يهمها ما يحمل بين جنبيه من نفس ، لا ما يحمل بين يديه من نفيس .

لقد أعلن النبي لأصحابه أن خير الصَداق أيسره ، وقال لباغى الزواج : التمس ولو خاتماً من حديد ، وحينما أخبره بعض الصحابة أنه تزوج المرأة على أربع أواقٍ قال له متعجباً مستكثراً : كأنما تنحتون الفضة من عرض هذا الجبل !

تلك هى تعليماته النظرية ، وإرشاداته القولية ، وهو في زواج ابنته يضيف إلى القول الفعل ، وإلى التوجيه التنفيذ ، وما أحسن القول يزينه العمل ، وما أجمل النظرية يؤكدها التطبيق ، وما أروع التشريع يسنده التنفيـذ ، وما أنفع التربية تقوم على الخُلق العملى ، والأُسوة الطيبة !!

* * *

• عرس نموذجى :

عقد علىّ عَلَى فاطمة ، ولم يدخل بها إلا بعد أشهر ، وذلك بعد انتصار الإسلام في بدر ، وكأنما أراد رسول اللّه أن يتم الفرحة بنعمة اللّه عليه ، فبنى هو بعائشة ، وبنى علىّ بفاطمة .

أتدرى ماذا كان جهاز فاطمة الزهراء ؟

كان جهازها خميلة ووسادة من أُدم حشوها ليف ، ورحا وسقاء وجُرَّتين ، ذلك هو جهاز سيدة النساء ، وكريمة سيد الأنبياء !!

أتدرى كيف تم العرس ؟

يقول جابر بن عبد اللّه : حضرنا عرس علىّ ، فما رأيتُ عرساً كان أحسن منه ، حشونا البيت طيباً ، وأتينا بتمر وزبيب فأكلنا ، وكان فراشهما ليلة عرسهما إهاب كبش !!

بهذه البساطة والتواضع تم هذا العرس المبارك ، كما تم من قبل الزواج والمهر والجهاز بلا تعقيد ولا تعويق ، ولا شطط ولا إسراف .

وقال الرسول لعلىّ في ليلة الزفاف : لا تُحدث شيئاً حتى آتيكما ، فذهب اليهما فدعا فاطمة ، فقامت إليه تعثر في ثوبها من الحياء ، فقال لها : إنى لم آل أن أنكحك - أى أزوجك - أحب أهلى إلىّ . ودعا بماء فتوضأ منه ، ثم نضح منه عليهما ، وقال : اللّهم بارك عليهما ، وبارك فيهما ، وبارك لهما في نسلهما .

وتلقفت السماء الدعاء ، فبارك اللّه في نسل علىّ وفاطمة ، وانقطع نسل النبي عليه السلام إلا منها رضى اللّه عنها ..

* * *

• تعاون على أعباء الحياة :

دخل علىّ بفاطمة ، ولم يكن الطريق أمامه مفروشاً بالأزهار والرياحين ، بل كان مفروشاً بالأشواك ، مضرجاً بالدماء .

كان علىّ رجلاً فقيراً ، لم يرث عن أبيه صفراء ولا بيضاء ، ولا ثاغية ولا راغية [1] ، فكان عليه - لأمر دنياه - أن يشق طريقه في الصخر بيديه ليقوت نفسه وأهله .

وكان عليه - لأمر دينه - أن يستعد لجهاد دام طويلاً لإرساء دعائم الإسلام ضد مشركين محاربين ، ويهود متربصين ، ومنافقين مذبذبين .

وكان على الزهراء أن تقاسم زوجها متاعب العيش ، وتكاليف الجهاد ، ووعثاء الطريق ، وقد فعلت فأحسنت ، وصبرت وصابرت ، وكانت له خير عون على واجبات الدين ومطالب الدنيا .

وكان أول ما يُنتظر أن تقوم به هو عمل البيت ، ولم يكن

---

(١) الثاغية : الشاة ، والراغية : الناقة .

في تلك العصور بالأمر الهين اليسير ، فالرغيف الذى يأتى اليوم من يد البائع إلى فم الآكل كان يحتاج إعداده إلى طحن بالرحا ، وعجن باليد ، وخبز بالوسائل البدائية حتى يصلح للطعام ، ولم يكن في البيت خادم ولا مساعد إلا المرأة الفاضلة فاطمة بنت أسد أم علىّ ، وكم كانت حيرته رضي اللّه عنه بين أم يحرص على برّها وراحتها ، وزوجة يرغب في تكريمها وصيانتها ، والطاقة لا تُسعفه ، والقدرة لا تُواتيه ، بيد أنه قسَّم بينهما العمل تقسيماً ودياً رضِىَ به كل منهما ، فقال لأمه : اكفى بنت رسول اللّه سقاية الماء والذهاب في الحاجة ، وتكفيكِ العمل في البيت : الطَحن ، والعَجن ، والخَبز ..

ولم يُعرف عن فاطمة الزوجة ، وفاطمة الأم ، إلا التعاون والحب والوئام ، على غير ماتجرى به العادة بين الزوجات والأحماء .

ولم يدخر أبو الحسن وسعاً في كسب لقمة العيش ، وولوج كل باب تهب منه رياح الرزق الحلال ، حتى إنه آجر

نفسه مرة لامرأة من عوالى المدينة ، ومرة أخرى لرجل يهودى، ينزع لهما بالدلو : كل دلو بتمرة !

هذه كانت حياة ابن عم رسول اللّه ، وزوجته بنت رسول اللّه ، هذا يشقى ويكدح خارج البيت ، وتلك تتعب وتجهد داخله ، فلما أفاء اللّه على رسوله ، وجاءته بعض الأنفال (الغنائم) قال علىّ لفاطمة : لقد سَنَوتُ [1] حتى اشتكيتُ صدرى ، وقد جاء اللّه أباكِ بسبى فاذهبى فاسأليه خادماً ، فقالت : وأنا واللّه قد طحنتُ (بالرحا) حتى مجلت [2] يداى !

فأتت النبي ﷺ ، فقال : ما جاء بك يا فاطمة ؟ قالت : جئتُ لأسلّم عليك ، واستحيت أن تسأله ورجعت ، فقال علىّ : ما فعلتِ ؟ قالت : استحييتُ أن أسأله ! فقرّر أن يأتياه جميعاً ، فذهبا ، فقال علىّ : يا رسول اللّه ، واللّه لقد سنوتُ حتى اشتكيتُ صدرى ، وقالت فاطمة : لقد

---

(١) سنوت : استقيتُ وحملت الماء .

(٢) مجلت : اصابتها المجلة ، وهى قشرة رقيقة يجتمع فيها ماء من أثر العمل اليدوي .

طحنتُ حتى مجلت يداى ، وقد جاءكَ اللّه بسبى وسِعة فأخدمنا (أعطنا خادماً) فماذا كان جواب الأب الرحيم ؟ كان جوابه إعلاناً للمساواة ، وتكافؤ الفرص للجميع ، قال : واللّه لا أعطيكما وأدع أهل الصُّفَة تتلوى بطونهم ، لا أجد ما أنفق عليهم !

ورجعت فاطمة وزوجها يجرّان قدميهما جراً ، فأتاهما النبي ، وقد دخلا في قطيفتهما - إذا غطّت رؤوسهما تكشفت أقدامهما ، وإذا غطّت أقدامهما تكشفت رؤوسهما - فنهضا ، فقال : مكانكما ، ألا أخبركما بخير مما سألتمانى ؟ قالا : بلى : قال : كلمات علمنيهن جبريل : تُسَبِّحانِ اللّه في دُبر كل صلاة عشراً ، وتحمدانِ عشراً ، وتكبرانِ عشراً ، وإذا أويتما إلى فراشكما فسَبِّحا ثلاثاً وثلاثين ، واحمدا ثلاثاً وثلاثين ، وكَبِّرا أربعاً وثلاثين .. فهذا خير لكما من خادم ..

قال علىّ : فواللّه ما تركتهن منذ علمنيهن رسول اللّه ﷺ .

ماذا صنع لهما النبي الكريم الا أن زاد عليهما واجباً

جديداً ؟ وأضاف إلى عملهما المادي عملاً روحياً آخر ؟! لكن العارفين يعلمون أن انشغال المرء بالأهداف الروحية ينسيه المتاعب المادية والجسمية ، فيحيا في الدنيا بقلوب أهل الآخرة . ويعيش في الأرض ، وكأنه من أهل السماء ، ومن ثَمَّ كان النبي ﷺ يواصل الصيام ويقول : وأيكم مثلى؟ إني أبيت يُطعمني ربي ويُسقيني !!

وقد كان يحدث أحياناً بين فاطمة وعليّ ما يحدث بين كل زوجين من ملاحاة أو مغاضبة ، فيبلغ الأمر إلى رسول اللّه ، فما هى إلا كلمة أو ابتسامة حتي تنطفىء شرارة الغضب ، وتفقأ عين الشيطان . لم يجعل من نفسه محامياً للابنة وممثل الاتهام للزوج ، وإنما كان بينهما قاضياً عدلاً ، بل طبيباً حكيماً . روى الشيخان أن النبي ﷺ جاء بيت فاطمة ، فلم يجد علياً في البيت فقال لها : أين ابن عمك ؟ قالت : كان بيني وبينه شيء فغاضبني فخرج ولم يقم عندي . فقال رسول اللّه لإنسان : انظر أين هو ؟ فقال : يا رسول اللّه .. هو بالمسجد راقد ، فجاءه رسول اللّه وهو مضطجع قد سقط

رداؤه عن شقه وأصابه تراب ، فجعل رسول اللّه ﷺ يمسحه ويقول : قم أبا تراب ، قم أبا تراب !

وعاد « أبو تراب » إلى بيته وزوجه ، وقد تقشّع عنه الغضب كما يتقشع سحاب الصيف ، وعاد إلى سماء الزوجية الصحو والصفاء .

وروى أبو عمر قال : كان بين عليّ وفاطمة كلام فدخل رسول اللّه فلم يزَل حتى أصلح بينهما ثم خرج ، فقيل له : دخلتَ وأنت على حال ، وخرجتَ ونحن نرى البِشر في وجهك ؟ فقال : وما يمنعني وقد أصلحتُ بين أحب اثنين إليّ ؟

لقد عاشت فاطمة حياتها مع عليّ مثال الزوجة المخلصة الحليمة - مع ما في عليّ من شدة وخشونة - الصابرة الراضية - برغم إعسار زوجها وضيق ذات يده - وقد عرف عليّ لها فضلها ، وقدَّر لها جهدها في الحياة الزوجية ، وظل يذكر ذلك طيلة حياته ، قال مرة لابن أعبد : يابن أعبد : ألا أخبرك عني وعن فاطمة ؟ كانت ابنة رسول اللّه

وأكرم أهله عليه وكانت زوجتي ، فطحنت بالرحا حتى أثَّر الرحا بيديها ، واستقت بالقِربة حتى أثَّرت القربة بنحرها ، وقمَّت البيت (نظفته) حتى اغبرت ثيابها ، وأوقدت تحت القِدر حتى دنَّست ثيابها ، وأصابها من ذلك ضر ...

* * *

• مكان فاطمة من رسول اللّه :

كانت فاطمة أصغر بنات النبي وأعزهن عليه ، وأحبهن إليه ، وكانت أشبه الناس به في خَلْقٍ وخُلُقٍ ، وكانت هى آخر من بقى من أولاده جميعاً ، فلا عجب أن يغمرها النبي بحبه ، ويؤثرها بمزيد حنانه وقربه ، وقد ذكرت ذلك أم المؤمنين عائشة فقالت : ما رأيتُ أحداً أشبه سَمتاً ودَلاً وهَدْياً برسول اللّه ﷺ في قيامه وقعوده من فاطمة بنت رسول اللّه ، قالت : وكانت إذا دخلت على النبي ﷺ قام إليها فقبَّلها ، وأجلسها مجلسه ، وكان النبي إذا دخل عليها قامت إليه فقبَّلته ، وأجلسته في مجلسها .

وقد برزت هذه العاطفة الأبوية الدافقة في أجلي صورها حين استأذنه بنو هشام بن المغيرة أن يزوِّجوا عليّ بن أبي طالب ابنة أبي جهل ، فأبي عليهم ، ووقف علي المنبر يقول : إن بني هشام بن المغيرة استأذنوني في أن يزوِّجوا ابنتهم علىّ بن أبي طالب فلا آذن ، ثم لا آذن ، ثم لا آذن .. إلا أن يريد ابن أبي طالب أن يُطلِّقْ ابنتي وينكح ابنتهم ، فإنما فاطمة بضعة مني ، يُريبني ما رابها ، ويُؤذيني ما آذاها ، إني أخاف أن تُفتن فاطمة في دينها ، وإني لا أُحرِّم حلالاً ، ولا أُحلُّ حراماً ، ولكن واللّه لا يجتمع بنت رسول اللّه وبنت عدو اللّه في بيت واحد أبداً ..

لكن هذه العاطفة الحارة سرعان ما تنكمش وتنطفىء إذا كانت بإزاء حدٍّ من حدود اللّه ، ولقد كان عليه السلام حين يريد أن يقرر للناس أن أحكام اللّه وسننه في الدنيا والآخرة لا تُحابي أحداً مهما يكن شأنه ومنزلته يضرب المثل بأعز الناس عليه : فاطمة .

يقول في شئون الدنيا : « وأيمَ اللّه ، لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعتُ يدها » ..

ويقول في شئون الآخرة : « يا فاطمة بنت محمد .. اعملي فإني لا أُغني عنك من اللّه شيئاً ، من بطَّأ به عمله لم يُسرع به نسبه » ..

* * *

• واكرب أبتاه :

إن الحياة الرضية الهنية لا تصنع نفوساً كبيرة ، إنما تتخرج النفوس الكبيرة في مدرسة الآلام ، وتُصنع القلوب العظيمة في مصهر الأحزان ، وقد شاء اللّه أن يُصْهِر قلب فاطمة في أتون الابتلاء ، ويُنْضِجه بحرارة الحزن والأسى ، فقد فجعت في أُمها وهى فتاة صغيرة ، وكوتها مشاعر الحزن على وفاة إخوتها وأخواتها جميعاً ذكوراً وإناثاً ، وزادها ألماً على ألم ، فقدها لأبيها وحبيبها الأعظم محمد رسول اللّه .

شهدت مرضه الأخير ، وكانت تذهب كل يوم لعيادته ، فيقوم اليها ويُقبِّلها كعادته في العافية ، فلما اشتدت عليه وطأة المرض ، خشِيَ عليها هول الفجيعة بموته ، فزفَّ إليها

بشرى تُهوِّن من وقع المصاب عليها . قالت عائشة : أقبلت فاطمة تمشى - وكان مشيها مشى رسول اللّه - فقال : مرحباً بابنتي ، ثم أجلسها عن يمينه ، ثم أسرَّ إليها حديثاً فبكت ، ثم أسرَّ إليها حديثاً فضحكت ، فقلتُ : ما رأيتُ كاليوم أقرب فرحاً من حزن !! وسألتها عما قاله ، فقالت : ما كنتُ لأُفشى علي رسول اللّه ﷺ سرَّه ، فلما قُبِضَ سألتُها فأخبرتني أنه قال : إن جبريل كان يعارضني بالقرآن في كل سنة مرة ، وإنه عارضني هذا العام مرتين ، وما أراه إلا قد حضر أجلي ، وإنك أول أهل بيتي لحوقاً بي ، ونِعْمَ السلَفُ أنا لك ! فبكيتُ ، فقال : ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء العالمين ؟ فضحكتُ .. (رواه الشيخان) .

وكانت حُمَّى المرض تشتد أحياناً على رسول اللّه حتى يُغشى عليه ثم يفيق وهو يعاني أشد الكرب ، وترى ذلك فاطمة ، فينتقل الألم من جسد أبيها إلى نياط قلبها ، فيحزُّ فيه حزّاً ، وتصيح قائلة : واكرب أبتاه !! ويسمعها النبي فيرد عليها ويقول : لا كرب على أبيكِ بعد اليوم ..

يريدُ أنه سينتقل من هذه الدنيا التي تَغُصُّ بالشقاء والآلام إلى دار لا شقاء فيها ولا آلام ..

ولحق النبي بالرفيق الأعلى مُخلِّفاً ابنته الحزينة في نحو الثلاثين من عمرها .

وما هي إلا أشهر ستة حتى صدقت نبوءته عليه السلام ، وكانت فاطمة أول أهله لحوقاً به . ففي ليلة الثلاثاء لثلاث خلون من رمضان سنة إحدى عشرة من الهجرة تلقت السماء تلك الروح الزكية ، ودُفِن ذلك الجسد الطاهر في أرض البقيع المباركة ودُفِنت ليلاً كما أوصت ، تاركة وراءها ذكراً حسنا في الآخرين ، ومثلاً صالحاً للمؤمنات ، وذُرِّيةً طيبة موصولة بنسب الرسول الكريم . رضي اللّه عنها ، وجزاها خير ما يجزى به الصدِّيقات .

* * *

أسماء.. ذات النطاقين

• نسبها وإسلامها :

هى أسماء ابنة أبي بكر الصدِّيق ، وأخت عائشة أم المؤمنين لأبيها ، وزوج الزبير بن العَوَّام ، حوارى رسول اللّه وابن عمته ، وأم الفارس المِغوار الخليفة عبد اللّه بن الزبير .

أسلمت مع السابقين الأولين وكان ترتيبها في الإسلام (الثامن عشر) ، وظلت في مكة تشارك المسلمين لأواء الدعوة ، ومرارة الأذى في سبيل اللّه ، حتى كانت الهجرة إلى المدينة ، فكان لها ثلاثة مواقف سجلها لها تاريخ السيرة النبوية بفخار وإعزاز .

حدِّثت عن أولها ، قالت :

صنعتُ سُفرة للنبي ﷺ حين أراد أن يهاجر إلى المدينة فلم نجد لسُفرته ولا لسقائه ما نربطهما به ، فقلتُ لأبي بكر : ما أجد إلا نطاقي ، قال : شقِّيه باثنين ، فاربطي بواحد منهما السِقاء ، وبالآخرة السفرة .

ورُوِيَ أن النبي قال لها حين فعلت ذلك : « أبدلكِ اللّه بنطاقكِ هذا نطاقين في الجنة » ، فقيل لها « ذات النطاقيــن » .

٢ - وحدَّثت عن الثاني فقالت : لما خرج رسول اللّه ﷺ وأبو بكر رضي اللّه عنه ، أتانا نفر من قريش فيهم أبو جهل ابن هشام ، فوقفوا على باب أبي بكر ؟ فخرجتُ إليهم ، فقالوا: أين أبوكِ يا بنت أبي بكر ؟ قلت : لا أدري واللّه أين أبي ، فرفع أبو جهل يده - وكان فاحشاً خبيثاً - فلطم خدى لطمة طرح منها قُرطى .

٣ - وحدَّثت عن الموقف الثالث ، فقالت : لما خرج رسول اللّه ﷺ إلى الهجرة ، وخرج أبو بكر معه ، احتمل أبو بكر ماله كله معه ، خمسة آلاف درهم أو ستة آلاف ، قالت : فدخل علينا جدي أبو قحافة وقد ذهب بصره ، فقال : واللّه إني لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه ، قلت : كلا يا أبت ، قد ترك لنا خيراً كثيراً ، فأخذتُ أحجاراً فوضعتُها في كوّة البيت التي كان أبي يضع ماله فيها ، ثم وضعتُ عليها ثوباً ، ثم أخذتُ بيد جدي فقلت : يا أبتِ ..ضع يدك على هذا المال ،

فوضع يده عليه فقال : لا بأس ، إذا كان ترك لكم هذا فقد أحسن ، وفي هذا بلاغ لكم .

قالت أسماء : لا واللّه ما ترك لنا شيئاً ، ولكني أردتُ أن أُسَكِّن الشيخ بذلك .

هذه هى أسماء المسلمة .. ليست امرأة فارغة همها زينتها ، وإنما هى مؤمنة همُّها رسالتها ، فلا عجب أن تكتم السر في شجاعة ، وتستقبل أبا جهل وأصحابه في قوة ، وتشق نطاقها وهي راضية ، وتتحمل لطم خدها وهي صابـــرة ، وتُحسن الحيلة لإرضاء جدها ، وهى سعيدة بما تصنع من أجل دينها ورسالتها .

* * *

• أسماء الزوجة :

تزوجت أسماء الزبير قبل الهجرة ، وكلاهما مسلم خالطت بشاشة الإيمان قلبه ، وامتزج الإسلام بلحمه ودمه ، فكانا مثال الزوجين المتوافقين ضمهما هدف واحد ، وطريقة واحدة، تحت لواء واحد .. هاجر إلى المدينة فهاجرت ، وجاهد فشدَّت أزره ، وصبرت في ضرَّائه ، وشكرت في سرَّائه .

لم يمنعها مكان أبيها ، ولا شرف قومها ، أن تقف إلى جنبه في أيام الشدة والفقر ، تعمل وتكدح ، وتُعَمِّر عش الزوجية بكدِّ اليمين ، وعرق الجبين ..

قالت أسماء : تزوجني الزبير ، وما له في الأرض مال ، ولا مملوك ، ولا شيء غير فرسه ، فكنتُ أخدمه خدمة البيت كله ، وأعلف فرسه ، وأسوسه وأكفيه مئونته ، وأحشُّ له ، وأقوم عليه ، وأدق النوى لناضحه (إبله) ، وكنت أنقل النوى على رأسي من أرض الزبير ، علي ثُلثي فرسخ ، وكنتُ أعجن وأسقي الماء ، وأخرز الدَّلو .

ولم تطل المدة حتى انتشرت دعوة الإسلام ، وفاض الخير على المسلمين ، وكان للزبير - فيما له - ألف مملوك يؤدون إليه الخراج ، وتمت كلمة ربك على المؤمنين بما صبروا ، وصدق الله : ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ، وَلأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾[1] .

* * *

كانت تجد ما تعمل .

(١) النحل : ٤١

• أسماء الأم :

ظل المسلمون مدة بعد الهجرة لا يُولد لهم ولد ، وأشاع اليهود أنهم سحروهم فلن يُنجبوا ، حتى كذَّبهم القَدَر ، فولدت أسماء ابنها « عبد اللّه » فكان أول مولود في المدينة ، فاستبشر المسلمون وكبَّروا ، وولدت بعد ذلك «عروة» و « المنذر » ، وما منهم إلا عالم أو فارس ، على أن موقفها مع ابنها عبد اللّه هو الذي جعل التاريخ يُصغي لها سمعه ، ويكتبها في سجل الأُمهات الخالدات .

بعد وفاة يزيد بن معاوية بُويع لعبد اللّه بن الزبير بالخلافة في معظم بلاد الإسلام : في الحجاز ، واليمن ، والعراق ، وخراسان ، وظل تسع سنوات ينادَي بأمير المؤمنين ، حتى شاءت الأقدار - لحظ بني أُمية - أن تزول الخلافة من أرض الحجاز .

جاء الحجَّاج بجند الشام فحاصر ابن الزبير في مكة ، وطال المدى ، واشتد الحصار ، وتفرَّق عنه أكثر مَنْ كان معـه ، فدخل عبد اللّه على أُمه قبل قتله بعشرة أيام ، فقال

لها : إن في الموت لراحة ، قالت : لعلَّك تمنيته لي ؟ ما أُحب أن أموت حتى يأتي على أحد طرفيك : إما قتلت فأحتسبك ، وإما ظَفَرْتَ فتقَرّ عيني ، فلما كان اليوم الذي قُتِل فيه ، دخل عليها حين رأى من الناس ما رأى من خذلانه ، فقال لها : يا أُماه .. خذلني الناس ، حتى ولداى وأهلي ، فلم يبق معي إلا اليسير ممن ليس عنده من الدفع أكثر من صبر ساعة ، والقوم يعطونني ما أردتُ من الدنيا ، فماذا ترين ؟

وهنا أمسك التاريخ بقلمه ليكتب موقف الأُم الصبور من ابنها وفلذة كبدها ، في لحظة حاسمة من لحظات الخلود : الأُم التي شاب رأسها ولم يشب قلبها ، وشاخ جسدها ولم يشخ إيمانها ، وانحنى ظهرها ولكن عقلها ظل مستقيماً مسدداً .. قالت أسماء : أنت واللّه يا بُنيَ أعلم بنفسك : إن كنتَ تعلم أنك على حق ، وإليه تدعو ، فامض له ، فقد قُتِل عليه أصحابك ، ولا تُمَكِّن من رقبتك غلمان بني أُمية يلعبون بها ، وإن كنت إنما أردتَ الدنيا فبئس العبدُ أنت ، أهلكتَ نفسك ، وأهلكتَ من قُتِل معك ، وإن قلتَ : كنتُ

فلما وهن أصحابي ضعفتُ ، فهذا ليس فعل الأحرار ، ولا أهل الدين ، وكم خلودك في الدنيا ؟ ! .. القتل أحسن .

قال : إني أخاف أن يُمَثِّل بي أهل الشام .

قالت : إنَّ الكبش لا يؤلمه سلخه بعد ذبحه .

فدنا ابن الزبير فقبَّل رأسها وقال : هذا واللّه رأيي ، والذي قمت به داعياً،إلى يومى هذا،ما ركنتُ إلى الدنيا ، ولا أحببتُ الحياة فيها ، وما دعاني إلى الخروج إلا الغضب للّه أن تُستحل حُرمه ، ولكني أحببتُ أن أعلم رأيكِ فزدتني بصيرة مع بصيرتي ، فانظري يا أماه ، فإني مقتول من يومي هذا ، فلا يشتد حزنك وسَلِّمى لأمر اللّه .

قالت : إني لأرجو من اللّه أن يكون عزائي فيك حسناً .

قال : جزاكِ اللّه خيراً ، فلا تدعى الدعاء لي قبل وبعد .

قالت : لا أدعه أبداً ، فمن قُتِل على باطل فقد قُتلتَ على حق . ثم قالت : اللّهم ارحم طَول ذلك القيام في اللَّيل الطويل ، وذلك الظمأ في هواجر المدينة ومكة ، وبرِّه بأبيه وبي ، اللّهم قد سلَّمتُه لأمرك فيه ، ورضيتُ بما قضيتَ

فأثبني في عبد الله ثواب الصابرين الشاكرين ، وذهب عبد الله فقاتل الساعات الأخيرة قتال الأبطال ، وهو يتمثل صورة أمه في عينيه ، وصوتها في أذنبه ، مرتجزاً منشداً :

أسماء يا أسماء لاتبكيني لم يبق إلا حسبي ودِيني

وصارم لانت به يميني

وما زال على ثباته حتى قُتِلَ ، فكبَّر أهل الشام لمقتله ، فبلغ ذلك ابن عمر فقال : الذين كبَّروا لمولده ، خير من الذين كبَّروا لموته .

* * *

• مع الحجَّاج :

صلب الحجَّاج عبد الله بن الزبير مبالغة في التشفي والإرهاب ، ثم أرسل إلى أمه أسماء فأبت أن تأتيه ، فأعاد إليها الرسول : لتأتنني أو لأبعثن اليكِ من يسحبكِ من قرونك ، فأبت وقالت : والله لا آتيه حتى يبعث إليَّ من يسحبني بقروني .

فما كان من الحجّاج إلا أن رضخ لصلابتها ، وانطلق حتى دخل عليها ، فقال : أرأيتِ كيف نصر اللّه الحق وأظهره ؟

قالت : ربما أُديل الباطل على الحق وأهله .

قال : كيف رأيتني صنعتُ بعدو اللّه .

قالت : أراك أفسدتَ على ابني دنياه ، وأفسد عليك آخرتك .

قال : إن ابنك ألحد في هذا البيت ، وقد قال اللّه : ﴿ ومَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (١) ، وقد أذاقه اللّه ذاك العذاب الأليم .

قالت : كذبتَ . كان أول مولود وُلِدَ في الإسلام بالمدينة ، وسُرَّ به رسول اللّه وحنّكه بيده ، وكبّر المسلمون يومئذ حتى ارتجت المدينة فرحاً به ، وكان براً بأبويه صواماً قواماً بكتاب اللّه ، مُعظّماً لحُرم اللّه ، مبغِضاً لمن يعصى اللّه - أما إنّ

---

(١) الحج : ٢٥

رسول اللّه حدّثني أن في ثقيف كذّاباً ومُبيراً (أى سفاحاً قتّالاً) ، فأما الكذّاب فقد رأيناه (تعني المختار بن عبيد الثقفي) ، وأما المبير فلا إخالك إلا إياه ..

فخرج الحجّاج من عندها منكسراً يتمنى لو لم يكن لقيهـــا ، بعد أن دخل عليها مزهواً يريد أن يتشفى .

هذه أسماء العجوز في سن المائة ، وهذا هو الحجّاج الجبار في أوج انتصاره ، وعنفوان طغيانه . إنّ الايمان في قلبها جعله في عينها يتضاءل ويتضاءل حتى صار شيئاً صغيراً كالهباء ، وجعلها في عينه تمتد وتستطيل حتى صارت شيئاً كبيراً كالمارد العملاق .

وبلغ عبد الملك بن مروان ما صنع الحجّاج مع أسماء فكتب إليه يستنكر فعله ، ويقول : مالكَ ولابنة الرجل الصالح ؟ وأوصاه بها خيراً ، ودخل عليها الحجّاج فقال : يـا أماه ، إنّ أمير المؤمنين أوصاني بكِ فهل لكِ من حاجة ؟ قالت : لستُ لك بأمٍ ، إنما أنا أم المصلوب على الثنيّة ، وما لي من حاجة .

وأخيراً .. آن للفارس المصلوب أن يترجل ، وينزل من فوق خشبته ويُسَلَّم إلى أمه فتحنِّطه وتكفِّنه وتُصَلِّى عليه وتودعه جوف الثري ليلتقي في دار الخلود بأبيه الزبير وجده أبي بكر ، وجدته صفية ، وخالته عائشة رضى اللّه عنهم .

وهكذا استقبلت المصيبة الكبيرة بنفس أكبر ، وإيمان أقـوى ... دخل عليها عبد اللّه بن عمر ، وابنها مصلوب . فقال لها : إن هذا الجسد ليس بشيء وإنما الأرواح عند اللّه، فاتقي اللّه واصبري .

فقالت : وما يمنعي من الصبر ، وقد أُهدى رأس يحيى ابن زكريا إلي بغي من بغايا بني إسرائيل ؟ !

ولم يطل بها المقام بعد ولدها ، فما هي إلا مائة يوم - أو أقل - حتى لحقت به عام ٧٣ من الهجرة ، وقد بلغت المائة عـام ، لم يسقط لها سن ولم يُنكر لها عقل . رحمها اللّه ورضِيَ عنها ..

* * *

أم سليم .. الرميصاء

« دخلتُ الجنة ، فسمعتُ مشية بين يديّ ،
فإذا أنا بالرُميصاء ، زوج أبي طلحة »
... (حديث شريف)

• بيتها .. ونسبها :

أنصارية ، خزرجية ، نجارية ، اختلفوا في اسمها ، ولكنها اشتهرت بالرُميصاء ، وعُرفت بكنيتها أم سليم بنت سلمان النجّاري ، لها برسول اللّه - بعد صلة الإسلام - صلة القرابة ، فقد كان بنو النجّار أخوال أبيه . وهى غصن ناضر من شجرة طيبة المنبت ، نامية الفروع ، مباركة الثمار ، فأخوها حرام بن سلمان أحد القرّاء السبعين ، الذين غدر بهم المشركون في بئر معونة ، وهو الذي وقف يناديهم : إنى رسول رسول اللّه إليكم ، فأتاه آتٍ من خلفه ، وطعنه طعنة فاجرة ، فلما أحسّ حرارة السِنان في جسده قال قولته المؤمنة : فزتُ وربِّ الكعبة .

وأختها أم حرام بنت سلمان ، زوج عبادة بن الصامت ، التي أخبرها الرسول عليه السلام أن من أمته أناساً يركبون البحر مجاهدين في سبيل الله كالملوك على الأسرّة ، فقالت: ادع الله أن يجعلني منهم ، فقال : أنتِ منهم ، وحقّق الله نبوءة رسوله ، واستشهدت في غزوة بحرية إلى بلاد الروم ، زمن معاوية ، وكانت في صحبة زوجها !

فهم أهل بيت ، تشابهت في الخير قلوبهم ، ذرّية بعضها من بعض ..

* * *

• الزوجة :

تزوجت أم سليم في الجاهلية مالك بن النضر النجّاري ، فولدت منه أنساً ، فلما جاء الله بالاسلام ، أسلمت مع السابقين إليه من الأنصار ، ثم قامت بواجبها كمؤمنة تبتغي نشر دعوتها ، وكزوجة تحب الخير لزوجها ، فعرضت عليه الإسلام ، فأخذته حَميّة الجاهلية ، وغضب عليها ، وما لبث أن تركها ، وفرّ إلى الشام ، فهلك هناك ..

وكانت أم سليم تقول : لا أتزوج حتي يبلغ أنس ، ويجلس في المجالس . وهذا ما جعل أنساً يقول بعد : جزى اللّه أُمى عني خيراً ، لقد أحسنت ولايتي ..

ثم تقدَّم لها أبو طلحة يخطبها ، وهو يومئذ مشرك ، وقال لها : لقد جلس أنس وتكلَّم ، فقالت له : يا أبا طلحة : أما إني فيك لراغبة ، وما مثلك يُرَد .. ولكنك رجل كافر ، وأنا امرأة مسلمة ، لا يجوز لي أن أتزوجك ، قال في استغراب : ماذا دهاكِ يا رُميصاء ؟ أين أنتِ من الصفراء والبيضاء ؟ ! (يريد الذهب والفضة) .

قالت في ثقة ويقين : لا أريد صفراء ولا بيضاء ، فأنت امرؤ تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ، ولا يغني عنك شيئاً .. أما تستحي - يا أبا طلحة - أن تعبد خشبة من الأرض نجَّرها لك حبش بني فلان ؟ ! .. إن أسلمتَ ، فذلك مهري ، لا أريد من الصَداق غيره .

بهذه الكلمات النابضة بالقوة والإيمان ، اهتزت موازين أبي طلحة القديمة ، وتغيَّرت وجهته ، فلم يجد سبيلاً إلا أن يقول : من لي بالإسلام يا رُميصاء ؟ !

قالت : لك بذلك رسول اللّه ﷺ ، فاذهب إليه .. فانطلقَ أبو طلحة يريد الرسول ، وكان جالساً بين أصحابه ، فلما رآه قال : جاءكم أبو طلحة وغُرَّة الإسلام بين عينيه .. وأسلم أبو طلحة أمام النبي ، وأخبره بما قالت الرُميصاء ، فزوَّجه إياها على ما شرطت .

إن الشأن في المرأة أن تتباهى بعِظَمِ مهرها ، وما بُذِل لها من درهم ودينار ، لكن أم سليم وضعت تقليداً جديداً ، فأصبحت القرون من بعدها تباهى بها ، وبعظمة موقفها . قال ثابت البنَّاني بعد أن روى حديث زواجها : فما بلغنا أن مهراً كان أعظم منه ، إنها رضيت الإسلام مهراً !

عاشت أم سليم مع أبي طلحة زوجة وفية ، ودوداً ، تُسرّه إذا نظر ، وتُطيعه إذا أمر ، وتحفظه إذا غاب ، وزاد سعادتهما أن رُزِقا بغلام صبيح أحبه أبو طلحة حباً شديداً . وكنوه « أبا عُمير » ، وكان النبي عليه السلام يمازحه إذا زار أم سليم ، وقد دخل عندها يوماً فوجده حزيناً ، فقال النبي : « ما لأبي عُمير حزيناً » ؟ ، فقالت : يا رسول اللّه ، مات نُغيره الذي كان يلعب به (النُغير طائر كالعصفور أحمر

المِنقار) ، فجعل النبي يقول له مازحاً : يا أبا عُمير.. مافعل النُغير !

وشاء اللّه أن يمتحن الزوجين السعيدين في زينة عشهما ، وثمرة حبهما ، وفلذة كبديهما ، لتترك أم سليم للتاريخ مأثرة أخرى للمرأة المسلمة في سجل الخلود ، فقد مرض الغلام ، وألحَّ عليه المرض ، وشُغِلَ به أبوه ، وحزن عليه أشد الحزن ، وكان يغدو ويروح على رسول اللّه ، فإذا عاد سأل عن الغلام . وفي إحدى روحاته إلى النبي اختطفت المنون الغلام الصبيح المليح فماذا صنعت الأم ، وقد فقدت ولدها وقُرَّة عينها ؟

إننا نرى بعض النساء يُكَدِّرن الأزواج والبيوت بدون مُكَدِّر ، وبعضهن يجعلن من الحادث الصغير مصيبة كبرى، تشق عليها الجيوب وتلطم الخدود ، بَيْدَ أن أم سليم كانت طرازاً ممتازاً من بنات حواء .

لقد هيأت أمر الصبي ، فغسّلته وكفّنته وحنّطته وسجّت عليه ثوباً ، ثم أرسلت أنساً يدعو أبا طلحة ، وأمرته ألاّ

يخبره بوفاة ابنه ، حتى تكون هى أول من تخبره . وجاء أبو طلحة ، وسأل : كيف الغلام ؟ قالت : قد هدأت نفسه ، وأرجو أن يكون قد استراح .

وظن الزوج الأب أنه قد عُوفى ، وكان صائماً ، فقدَّمت له إفطاره ، فأفطر ، وأقبل اللَّيل ، فتزيَّنت وتطيَّبت ، ثم تعرَّضت له فأصاب منها وقضى وَطره ، فلما أصبح اغتسل، وأراد أن يخرج ، فقالت : يا أبا طلحة .. أرأيتَ لو أن قوماً أعاروا أهل بيت عارية ، فطلبوا عاريتهم ، ألهم أن يمنعوهم ؟ قال : ليس لهم ذلك ، إن العارية مؤداة إلى أهلها ، فلما انتزعت منه هذا الجواب قالت : إن اللَّه أعارنا ابننا فلاناً ثم أخذه منَّا ، فاحتسبه عند اللَّه ..

قال : إنَّا للَّهِ وإنَّا إليه راجعون ، تركتِني حتى تلطختُ ثم أخبرتِني بابني ؟ !

وذهب إلى النبي عليه السلام فصلَّى معه وأخبره بما كان منهما ، فقال النبي ﷺ : « بارك اللَّه لكما في ليلتكما ». وصعد الدعاء المحمدي فتفتحت له أبواب السماء فوُلِدَ لهما

من تلك اللّيلة عبد اللّه بن أبي طلحة والد إسحق بن عبد اللّه الفقيه التابعي الجليل وإخوته ، وقد كانوا تسعة ، كلهم حمل عنه العلم ، وختم القرآن .

* * *

• الأم :

رأينا في القصة السالفة نموذجاً للأم حين تفقد ولدها ويبقى زوجها ، ونعرض الآن صورة للأم حين تفقد زوجها ويبقى ولدها .

لقد فارقها مالك بن النضر ، وترك لها أنساً غلاماً ، فأبت أم سليم أن تتزوج حتى يشبُّ عن الطوق ، ويجلس ويتكلم ، وقد رووا أنها قالت لأنس - حين رضيت بأبي طلحة زوجاً - قم يا أنس فزوِّج أبا طلحة ، فكان وليِّها في عقدها !

إننا اذا ذكرنا فضل أنس بن مالك الذي صحب رسول اللّه وخدمه عشر سنين ، وسجَّل لنا من حياته وأقواله وأعماله وأخلاقه الكثير ، وعاش قرابة قرن من الزمان يروي ويفتي ، ويعلم ويربي ، فلنذكر صاحبة الفضل على أنس ، وهى أمه التي عرفت أين تضعه . وكيف تختار له المدرسة والمعلّم ؟

فكانت المدرسة بيت النبوة ، وكان المعلّم محمداً رسول اللّه..

قال أنس : قدم النبي المدينة وأنا ابن عشر سنين ، فأخذت أمي بيدي ، فانطلقت بي إلى رسول اللّه ، فقالت : يا رسول اللّه .. إنه لم يبق رجل ولا امرأة من الأنصار إلا قد أتحفك بتحفة ، وإني لا أقدر على ما أتحفك به إلا ابني هذا ، فخذه فيلخدمك ما بدا لك ، فخدمتُ النبي عشر سنين ، فما ضربني ضربة ، ولا سبَّني سبة ، ولا انتهرني ، ولا عبس في وجهي .

وكانت تمده بتوجيهها السديد في مصاحبة رسول اللّه ، رأته مرة في الطريق ، فقالت : إلى أين يا أنس ؟ فقال : في سرٍّ رسول اللّه ، فأوصته هذه الوصية الجليلة : احفظ على رسول اللّه سرّه .

وأحبت أن تغمر ابنها بكل ما تستطيع من بركة الرسول الكريم . قالت له مرة : يا رسول اللّه .. خادمك أنس ، ادع اللّه له ، فقال : « اللّهم أكثر ماله وولده ، وبارك له في ما أعطيته » ، فكان أنس أكثر الأنصار في البصرة مالاً ، وعاش حتى رأى من ذريته أكثر من مائة نسمة !

* * *

• المسلمة :

أسلمت أم سليم عن بصيرة نيرةٍ ، وعرفت مهمتها من أول يوم ، فعرضت الاسلام على زوجها الأول فأبى وفارقها ، ودعت أبا طلحة - حين خطبها - إلى الإسلام ، فأسلم وتزوجها ، وكانت أثيرة عند رسول اللّه ، لعمقِ إيمانها وجلال مواقفها ، وقوة شخصيتها ، فكان يزورها ويكرمها ويقيل عندها ، وعند أختها أم حرام ، إذ كانتا في دار واحدة ، وكأنه بذلك يعزيهما عن موت شقيقهما - حرام - في بئر معونة شهيداً في سبيل اللّه .

وكانت شديدة الحب لرسول اللّه . حدَّث أنس قال : أتانا النبي ﷺ فقالَ عندنا (نام القيلولة) فعرق ، فجاءت أم سليم بقارورة نسلت فيها العَرَق ، فاستيقظ النبي ﷺ فقال : يا أم سليم .. ما الذي تصنعين ؟ قالت : هذا عرقك ، نجعله في طيبنا وهو من أطيب الريح .

وكانت تغزو مع النبي في فريق من النساء المؤمنات يقمن ببعض الخدمات للجيش ، فيسقين القوم ، ويسعفن الجرحى ، وينقلن القتلى ، ويقمن على المرضى ، فإذا دعا الموقف

في موقعة من المواقع إلى حمل السلاح ، تحوّل الغزال أسـداً ، ووقفت المرأة إلى جانب الرجل ،تصد بسلاحها أعداء اللّه !

وكذلك رأينا أُم سليم في غزوة حُنين ، حين كمن المشركون ، وانكشف المسلمون ، تتخذ خنجراً ، فيسألها أبو طلحة ، فتقول : اتخذته ، إن دنا مني أحد من المشركين بقرتُ بطنـــه !

وحدَّث أنس قال : دخل النبي علينا ، وما هو إلا أنا وأمي ، وأم حرام خالتي ، فقال لنا : قوموا لأُصلّي لكم ، وكان ذلك في غير وقت الصلاة ، فصلّى بنا ، فجعلني عن يمينه ، ثم دعا لنا أهل البيت بكل خير .

قالت أُم سليم : لقد دعا لي رسول اللّه حتى ما أُريد زيادة !

تلك هى أُم سليم .. نموذج كريم للزوجة الصالحة .. والأُم الفاضلة .. ومَثلٌ رفيع للمرأة المسلمة .. في عقلها الناضج .. وعاطفتها المتزنة .. وارادتها القوية .. وإيمانها العميق ..

* * *

أم عمارة.. نسيبة بنت كعب

عن عمر بن الخطاب قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول - في شأن أم عمارة : « ما ألتفتُ يوم أحد يميناً ولا شمالاً إلا وأراها تقاتل دوني » ..

• أسرتها :

هى نسيبة بنت كعب بن عمرو الأنصارية الخزرجية النجّارية وكُنيتها أم عمارة .

أخوها : عبد الله بن كعب أحد المجاهدين الذين شهدوا بدراً ، والثاني أبو ليلى عبد الرحمن بن كعب أحد الخاشعين البكّائين من خشية الله .

تزوجت بزيد بن عاصم ، فولدت منه ابنيها حبيباً وعبد الله ، المؤمنَين المجاهدَين .

وخَلَفَ عليها من بعده غزية بن عمرو فولدت له تميماً وخَوْلَة .

• إسلامها :

حين أراد اللّه أن يكون للإسلام تربة ينمو فيها غرسه وأرض تقوم عليها دولته ، ساق أبناء يثرب من الأوس والخزرج إلى موسم الحج فأسلم جماعة منهم على يد رسول اللّه ﷺ ، وعادوا إلى قومهم فانتشر الإسلام بينهم ، وكانوا يلتقون برسول اللّه في كل موسم عند العقبة بمكة يوصيهم ويُبايعهم ، حتى كان العام الثالث لهم فتواعدوا عند العقبة أوسط أيام التشريق وهم ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان ، فبايعوا النبي عليه السلام أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم وأنفسهم ، وكانت المرأتان اللّتان شرّفهما اللّه بهذه البيعة هما : أم عمارة ، وأم منيع أسماء بنت عمرو .

روى الواقدي عن أم عمارة قالت : كانت الرجال تصفق على يَدَىْ رسول اللّه ليلة العقبة والعباس آخذ بيده ، فلما بقيتُ أنا وأم منيع نادى زوجي غزية بن عمرو : يا رسول اللّه .. هاتان امرأتان حضرتا معنا تبايعانك ، فقال : قد بايعتهما على ما بايعتكم عليه ، إني لا أُصافح النساء .

وهكذا أسلمت أم عمارة مع السابقين ، وبايعت مع المبايعين ، لم يكن إسلامها تقليداً لأسرة ، ولا تبعية لزوج ، ولكنه كان إسلام العقل والقلب والإرادة ، فوهبت نفسها لهذا الدين الذي آمنت به ، تعمل به وتعمل له ، وتجاهد في سبيله .. في البيت .. في المسجد .. في الميدان .. في كل مكان .

وكانت طموحة عالية الهِمَّة ، تُريد أن تُثبت للمرأة المسلمة مكانها بجوار الرجل المسلم ، وكأنها لم يرض طموحها أن يتحدث القرآن إلى الرجال وتدخل المرأة تبعاً ، فأتت رسول اللّه تقول له : يا رسول اللّه .. ما أرى كل شيء إلا للرجال ، وما أرى النساء يُذكرن في شيء . فاستجاب اللّه لها ، ونزل أمين السماء إلى أمين الأرض بقرآن يُتلى يُسجِّل فيه موقف المرأة بجانب الرجل صراحة لا ضمناً . وقصداً لا تبعاً . قال تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ

وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً ﴾ (١) .

* * *

• في ساحات الجهاد :

قال شاعر عربي :

كُتِبَ القتلُ والقتال علينا وعلى الغانياتِ جر الذيول

وقال آخر :

خُلِقنا رجالاً للتجلد والأسى وتلك نساء للبكا والمآتمِ

بَيْدَ أن أم عمارة غيَّرت ظن الشعر ، وأبطلت رأى الشاعرين ، فلم ترض أن يكون نصيبها جر الذيول عند النصر ، ولا البكاء والعويل عند الهزيمة ، بل كان همها أن تُسهم - مع الرجل - في اجتلاب النصر ، ودرء عار الهزيمة .

وها نحن نراها تحضر معظم الغزوات مع رسول الله ﷺ ،

---

(١) الأحزاب : ٣٥

تخدم المجاهدين ، وتُحرِّض المقاتلين ، وتُثبِّت المترددين ، وتقوم على الجرحى ، وتحمل الماء للعطاش ، فإذا جدَّ الجد أو انفرط العقد ، وناداها الموقف شهرت سلاحها وقاتلت قتال الأبطال ، وثبتت ثبات الجبال .

شهدت غزوة أُحد هى وزوجها وابناها ، ومعها شنٌّ لتسقي الجرحى ، ورأت انتصار المسلمين في الجولة الأولى حتى غلب الضعف الإنساني على نفوس طائفة استهوتهم الغنائم وأرادوا الدنيا ، وتركوا أماكنهم التي عيَّنها لهم رسول اللّه ، فتحوَّل ميزان المعركة ، وأتى المسلمون من خلفهم ، واضطربت الصفوف وانتشر النظام . وفي هذه اللَّحظات الرهيبة لم ينخلع قلب أُم عمارة من هول الصدمة ، ولم يكن سلاحها الصراخ أو الدموع . لقد قاتلت وأبلت بلاءً حسناً وهى حاجزة ثوبها على وسطها واقفة بين يدي الرسول تتلقى دونه الضربات والسِهام ، كأنها ترس يحميه ، حتى جُرحت اثني عشر جرحاً بين طعنة برمح أو ضربة بسيف . ولما أقبل ابن قميئة لعنه اللّه يريد النبي ﷺ كانت فيمن اعترض له ، فضربها على عاتقها ضربة صار لها فيما بعد ذلك غور أجوف ، وضربته هى ضربات .

دخلت عليها أم سعيد بنت سعد بن الربيع فقالت : حدثيني بخبرك يوم أحد ، فقالت : خرجتُ في أول النهار ومعي سقاء فيه ماء ، فانتهيتُ إلى رسول اللّه ﷺ وهو في أصحابه والريح والدولة للمسلمين ، فلما انهزم المسلمون انحزتُ إلى رسول اللّه فجعلتُ أباشر القتال وأذبُّ عن رسول اللّه بالسيف وأرمي بالقوس حتى خلصت إلىّ الجراحة .

فلا غرو أن يذكر الرسول فضلها وينوِّه بشأنها ، فقال : « لَمقام نسيبة بنت كعب اليوم خير من مقام فلان وفلان ما التفتُ يميناً وشمالاً إلا وأراها تقاتل دوني » . وقال لابنها عبد اللّه : « بارك اللّه عليكم من أهل بيت .. مقام أمك خير من مقام فلان وفلان ، ومقام ربيبك (يعني زوج أمه) خير من مقام فلان وفلان ، ومقامك خير من مقام فلان وفلان ، رحمكم اللّه أهل بيت » !

قالت أم عمارة : ادع اللّه أن نرافقك في الجنة .

قال : اللّهم اجعلهم رفقائي في الجنة .

قالت : ما أبالي - بعد ذلك - ما أصابني من الدنيا .

وفي الحُديبية .. حين بلغ المسلمين أن عثمان قتلته قريش، وقف النبي يُعلن في أصحابه : إن اللّه أمرني بالبيعة ، فأقبل الناس يبايعونه متزاحمين حتى تداكوا ، فما بقى لهم متاع إلا وطئوه ، ثم لبسوا السلاح - وهو معهم قليل - وقامت أم عمارة إلى عمود كانت تستظل به فأخذته بيدها ، وجعلت منه سلاحاً ، وشدَّت سكيناً في وسطها .

وفي حُنين - حين انكشف المسلمون - نرى منظراً عجباً، امرأتين من الأنصار تقفان موقفاً رائعاً : أم سليم بنت ملحان معها خنجر قد حزمته على وسطها وهى يومئذ حامل بابنها عبد اللّه ، وأم عمارة تصيح بقومها الأنصار : أى عادة هـذه ؟ ما لكم وللفرار ؟ وشدَّت على رجل من هوازن فقتلته وأخذت سيفه .

* * *

• في اليمامة :

عاشت أم عمارة طوال حياة رسول اللّه تجاهد بجوار زوجها وابنيها ، حتى لحق النبي بالرفيق الأعلى ، وكان

يكفيها جهادها مع النبي رصيداً ضخماً تلقى به اللّه . ولكن الجهاد - وإن كان صعب التكاليف مُرُّ المذاق - له حلاوة لا يسلوها من ذاقها ، ولا يحس طعمها القاعدون والمتقاعسون ، وقد تذوّقت صاحبتنا حلاوة الجهاد ، ولذّة الكفاح ، فأبت إلا أن تشارك المجاهدين في حرب المرتدّين المتمردين في عهد الصدِّيق أبي بكر ، وشهدت معركة اليمامة مع خالد بن الوليد ، تلك المعركة الرهيبة التي دار القتال فيها بين المسلمين وبين مسيلمة الكذّاب ومن تبعه من المتعصبين والمضلّلين ، وقد عاهدت اللّه أن تموت دون مسيلمة أو يُقتل، فإن لها عنده ثأراً أى ثأر . أليس هو قاتل ابنها حبيب الذي كان النبي قد بعثه إلى مسيلمة برسالته فكان إذا قال له : أتشهد أن محمداً رسول اللّه ؟ قال : نعم ، فإذا قال : أتشهد أني رسول اللّه ؟ سكت وقال : أنا أصمُّ لا أسمع. وفعل ذلك مراراً فغاظ ذلك اللّعين الكذّاب ، فما كان منه إلا أن قتله وقطّعه عضواً عضواً ، مخالفاً بذلك التقاليد المرعية أن الرُّسل لا تُحبس ولا تُقتل .

فلا عجب أن تستبسل ابنة كعب في المعركة ، تدفعها عاطفة الأم الموتورة وعقيدة المؤمنة القوية ، وإلى جنبها ابنها الثاني عبد اللّه يحفزه نور اليقين في فؤاده ، وتُلهبه نار الثأر لأخيه في حناياه ، وشاء القدر أن يلتقي سيفه ، وحربة وحشيّ (قاتل حمزة) على مسيلمة ، رماه وحشيٌّ بالحربة - وهو مسدِّد الرمية - وضربه عبد اللّه بالسيف - وهو فتى الحروب وربيب الجهاد - فأطاحا بالملعون وارتاحت الأرض من شرِّه .

أما الأم فقد قُطِعَتْ يدها ، وجُرِحت بضعة عشرة جرحاً أخر تُضاف إلى جراحها القديمة ، وبقيت آثارها في جسدها مفخرة ناطقة لها خاصة وللمرأة المسلمة عامة - هذا في الدنيا - وفي الآخرة تكون أشهادها عند اللّه ، حين تُبعث بها يوم القيامة تقطر دماً : اللّون لون الدم والريح ريح المسك .

* * *

عبرة

أرأيتَ أيها الأخ المسلم ؟ ! أرأيتِ أيتها الأُخت المسلمة ؟ ! أن الاسلام العظيم الذي نسعد بالإيمان به ، ونهتدي بنوره المبين ، ونستظل بتعاليمه الوارفة ، ونشعر بأخوته الوثيقة بيننا وبين ٩٠٠ مليون من أبنائه .. هذا الإسلام لم يأتنا مصادفة أو بفعل الخوارق ، ولم يصلنا في طريق مفروش بالسندس والاستبرق ، ولكنه وصلنا في طريق مضرج بالدماء ، مفروش بالجماجم والأشلاء ، شارك فيه الرجال والنساء ، والشيب والشباب .

فاحرصي أُختي المسلمة على هذا التراث الغالي ، وجاهدي من أجله ..

أما أنتَ أيها الأخ المسلم ، فلا يكن نصيبك فيه أقل من نصيب أولئك النساء .

* * *

النادي الشبابي

محتويات الكتاب

الصفحة

مقدمة ٣

١ - خديجة بنت خويلد
(٧ - ٢٠)

خديجة في الجاهلية ٧

خديجة التاجرة ٨

شريكة التجارة تصبح شريكة الحياة ٩

زواج مثالي ١١

خديجة المؤمنة ١٤

وفاة .. ووفاء ١٨

٢ - فاطمة الزهراء
(٢١ - ٤٢)

اللّهم هؤلاء أهلي ٢١

الصفحة

ميراث وتربية ٢٢
علي يخطب فاطمة ٢٦
عرس نموذجي ٢٩
تعاون على أعباء الحياة ٣١
مكان فاطمة من رسول الله ٣٧
واكرب أبتاه ٣٩

٣ - أسماء .. ذات النطاقين

(٤٣ - ٥٤)

نسبها واسلامها ٤٣
أسماء الزوجة ٤٥
أسماء الأم ٤٧
مع الحجّاج ٥٠

٤ - أم سليم .. الرُميصاء
(٥٥ - ٦٤)

الصفحة

بيتها ونسبها ٥٥
الزوجة ٥٦
الأم ٦١
المسلمة ٦٣

٥ - أم عمارة .. نسيبة بنت كعب
(٦٥ - ٧٣)

أسرتها ٦٥
إسلامها ٦٦
في ساحات الجهاد ٦٨
في اليمامة ٧١
عبرة ٧٥
محتويات الكتاب ٧٧

* * *

رقم الايداع بدار الكتاب : ٥٩٣٧ / ١٩٨٩
الترقيم الدولي : ١٩٦ - ٣٠٧ - ٩٧٧

النادي الشبابي

طبع بالمطبعة الفنية ــ ت : ٣٩١١٨٦٢

النادي الشبابي

كتب للمؤلف

١ ــ الحلال والحرام فى الإسلام
٢ ــ الإيمان والحياة.
٣ ــ الخصائص العامة للإسلام.
٤ ــ العبادة فى الإسلام
٥ ــ ثقافة الداعية
٦ ــ فقه الزكاة (جزءان).
* سلسلة حتمية الحل الإسلامى:ــ
٧ ــ * الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا.
٨ ــ * الحل الإسلامى.. فريضة وضرورة.
٩ ــ * بينات الحل الإسلامى.. وشبهات العلمانيين والمتغربين.
١٠ ــ مشكلة الفقر، وكيف عالجها الإسلام.
١١ ــ بيع المرابحة للآمر بالشراء. كما تجريه المصارف الإسلامية.
١٢ ــ الصبر فى القرآن الكريم.
١٣ ــ غير المسلمين فى المجتمع الإسلامى.
١٤ ــ التربية الإسلامية، ومدرسة حسن البنا.
١٥ ــ رسالة الأزهر بين الأمس واليوم والغد.
١٦ ــ جيل النصر المنشود.
١٧ ــ وجود الله.
١٨ ــ حقيقة التوحيد.
١٩ ــ نساء مؤمنات.
٢٠ ــ ظاهرة الغلو فى التكفير.
٢١ ــ الناس والحق.
٢٢ ــ درس النكبة الثانية.
٢٣ ــ عالم وطاغية.
٢٤ ــ الفقه الإسلامى بين الأصالة والتجديد.
٢٥ ــ عوامل السعة والمرونة فى الشريعة الإسلامية.
٢٦ ــ الوقت فى حياة المسلم.
٢٧ ــ أين الخلل؟
٢٨ ــ الرسول والعلم.
٢٩ ــ نفحات ولفحات «ديوان شعر».
٣٠ ــ الإسلام والعلمانية وجهاً لوجه.
٣١ ــ فتاوى معاصرة.
٣٢ ــ شريعة الإسلام.
٣٣ ــ الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف
٣٤ ــ قضايا معاصرة على بساط البحث.
٣٥ ــ الاجتهاد فى الشريعة الإسلامية.
٣٦ ــ المنتقى من الترغيب والترهيب (فى جزءين).
٣٧ ــ الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربى والإسلام.
٣٨ ــ الفتوى بين الانضباط والتسيب.
٣٩ ــ من أجل صحوة راشدة.
٤٠ ــ الإمام الغزالى بين مادحيه وناقديه.